زاهية او ضحيّة الأزياء (المودا)

رواية تاريخيّة بقلم الاب لويس شيخو اليسوعي (تتمّة)

قال الكاهن الراوي: قرُب في تلك الاثناء عيد الفصح المجيد ودخلنا جمعة الآلام. فلم اشأ ان يمرّ هذا العيد المبارك على زاهية دون ان تشترك مع المؤمنين بقبول الاسرار وهي لا تزال منهوكة ببدانها العضال وفي خطر الموت. فعُدت اليها في بدء هذا الاسبوع واعلمتني رئيسة المستشفى انّها ترغب في عيادتي وانّها حدث لها بعض نوبات من مرضها لكنها لم تظهر شيئاً من التذمّر كما في السابق وكانت ترضى بما نالها من النوافذ التقويّة وتردّدها كما تسمّيها منّا.

فلمّا دخلتُ عليها صرخت: اوّاه يا ابتِ خفتُ ان افارق الحياة قبل ان اتمّم لك حديثي فتركني اضلالي وترشدني الى خلاص نفسي

قلتُ: في هذه الايام القريبة من الاعياد الفصحيّة تزيد اشغالنا الراعوية ولا تُبقي لنا زمناً فارغاً على اني كنتُ لا ازال اذكرك امامه في وقت الذبيحة الطاهرة واتقصّى اخبارك من راهبات المستشفى

وللحال استأنفت زاهية حديثها فقالت:

«ادركتُ الرابعة عشرة من عمري فكانت عمّة امي ان يخطبني احد وجوه مدينة طرابلس. وهذا ما كانت تنويه حين كانت تسعى بتحليتي بتلك الازياء التي سبق ذكرها. على انّ الامر حدث على خلاف ما كنّا نظنّ. اذ كان الشبان اذ كانوا يروني كأني براقش «في كل لون اكون» ساء ظنّهم في مكارمنا يتهامسون بينهم في شأني فيقولون: «لا خير في فتاة كهذه مع ما يظهر عليها من خفّة الطباع والطياشة»

«وبعد ان خطبني واحد منهم وعلم ما تملكه امي عليّ من المال في ملابسي وازيائي ارتدّ عن نيّته خائفاً على دراهمه ان اصرفها في تلك الملابس فلا يبقى له ما يتعيّش به وهو لا يربح من شغله إلّا كفاية معاشه

«ونحن لكذلك اذ انتشبت الحرب الكونيّة. واخذت الدولة تحشد الشبان للعسكرية فأمسكت احد اعمامي وهرب الآخر الى حوران فبقيتُ وحدي مع امي.

وما عمّ ارباب الحكومة ان ضبطوا اموالنا ولم يبقوا لنا الّا الزهيد القليل مما لا يكاد يكفي لمعاشنا

ففكرتْ امي ان تتخذني كوسيلة لسدّ عوزنا فسألتني الى رجل كان فاتحاً مقهى كبيراً يزدحم فيه الشبان من كل الطوائف فجهّزني بثياب تجلب ابصار الوافدين الى المكان بحيث يروق لهم نظري. فكانوا اذا رأوني يتبسّمون ويتغامزون وربّما اسمعوني من كلام الغرام ما كان يخدش مسامعي فكانت تتغلب عليّ افكار العالم وشهواته. ولولا نعمةٌ خاصة من الله لكنتُ اصبحت من عدد المومسات وانما نجّاني الله من وقاحتهم بكثرة ما كان هناك من شغل الخدمة حتى منتصف الليل فاذا اويتُ الى فراشي سقطتُ لا أعي لنفسي لمزيد التعب

وكان في جوار المقهى رجلٌ تقي كان عرف والدي وادرك ما يتهدّد عفافي من الخطر فكان اذا رآني في الخلوة يحذّرني من مآثر اولئك الشبان وتزقهم. وكان بحضوره في المقهى يزاجرهم عن سوء فعلهم فجازاه الله خيراً عن فعله هذا فانهُ كان الشبه بـ[illegible] من رجل دين

وبلغنا الى سنة الحرب الثالثة فساءت الاحوال وزادت الجاعة وكان صاحب المقهى طمّاعاً بالدرهم يريد ان يقلل اجرتي. فما رضيتْ بذلك والدتي لاسيما اذ رأتني مشبوكة القوى. وكان بلغها انهُ أُنشئ في المدينة مرقص يحضرهُ ضبّاط الاتراك ويحبّون الملاهي فعرضتني على صاحبه فلمّا رآني رشيقة القدّ رائعة المنظر رضي بي. وكانت امي لتحصل على مرغوبها البستني الملابس الخلاعيّة الجديدة التي اخذت تروج بين الفتيات القليلة الحياء. فقصّرتْ اكمامي الى منكبيّ وقوّرتْ فستاني الى منتصف صدري المكشوف وكان الفستان لا يبلغ الى ركبتي.

ففي هذا الزيّ المخجل دخلت ذلك المرقص وتعلّمت حركاته وطرائق غنجه ولقّنوني الاغاني الغرامية الشائنة. فكنتُ في اوّل امري أعاني شقّ النفس بمزاولة هذه المهنة الشائنة إلّا انّ تنشيط اصحاب المحلّ وتصفيق الحضور عند ظهوري على المرسح صلّبا جبيني حتى اعتدتُ العمل وذهب عني كل خجل فيطرب الناس لصوتي الشجيّ ويستحسنون حركاتي في الرقص حتى حصل ربحٌ كبير بواسطتي لصاحب المحلّ. ونالنا انا وامي قسمٌ منهُ

« على انَّ تلك الملابس الخلاعيَّة سبَّبت لي علَلاً لم ازل متأثرة منها . وكان اوَّل ما اصابني زكامٌ شديد اذ كنتُ في هذه الحفلات اتصبَّب عرقاً فاذا مررتُ امام نافذة مفتوحة او مجرى هواء وصدري مكشوف الشعر بقشعريرة تؤدّي بي الى زكام قوي . بل تحوَّل مرَّة ذاك الزكام الى ذات الرئة واشتدَّت عليَّ العلَّة فبقيت نحو شهر طريحة الفراش بل خيف على حياتي منها

« وخرجنا مرَّة اخرى في السنة ١٩١٧ الى بساتين طرابلس عند نهرها الحلو دُعي اليها مع ضبَّاط الاتراك رجالٌ من الالمان في خدمة الدولة من محالفيها في الحرب . فاراد اصحابنا ان يلهوهم على الرغم من ويلات الحرب فاعدُّوا لهم هناك مأدبةً فاخرة ختموها برقص كنت انا احدى الواقفات فيه . على انَّ أسرجة الحديقة في تلك الليلة جمعتْ علينا بعوض المستنقعات فلُسعتْ انا بازنادي المكشوفة وما لبثت ان حسستُ بحمَّى الملاريا التي لزمتني تلك السنة وأنهكتْ قواي بنوباتها المتوالية فلم انجُ منها الَّا بعد الليا والتي وحتى اليوم اظنّ ان مرضي الحاضر هو من عواقبها

« ومررنا يوماً في حيّ المسلمين فرآني احدهم بهذه الثياب الخلاعيَّة وساقيَّ مكشوفتين فاشمأزّ لهذا النظر متغيّظاً وحرَّش عليَّ كلبه فاقتحم عليَّ الكلب وعضَّني عضَّةً اليمة اثرُها ظاهر الى اليوم في ساقي اليسنى . ورمى عليَّ آخر مزيجاً كيموياً شوَّه به صدري وملابسي . وكانت النساء المسلمات اذا لقينني في طريقهنَّ وهنَّ متحجبات متستّرات بالخبرات يشتمنني ويلعنَّ تلك الازياء الخلاعيَّة ويقذفن من يلبسها بسهام السبّ والتقريع . فكانت كل هذه الاهانات تحيك في صدري فألوم امي التي عرَّضتني لها . إلا انَّ روح العالم كانت قد اسرتني بحيث لم استطع ان اجرّد نفسي عن هذه الخزعبلات واقاوم امي التي ربَّتني على حبّها

« انتهت اخيراً بعد اربع سنوات الحرب المشئومة التي ذقنا فيها الامرَّين فاحببتُ ان افكّ حالي من تلك الخدمة الشائنة واعود الى بيت امي فاعيش معها بالهدوء والسكينة وقد حصلتُ بتعبي على ربح كافٍ لعيشتنا سنتين او ثلاث سنين . لكنَّ امي طمعت بالمزيد وارادت ان تقسرني على البقاء في المرقص المذكور

« فساءني الامر جدًّا وأردتُ ان اتحرَّر من سلطتها . وكانت قدمت في ذلك الوقت جوقة عربية للتمثيل من مصر وهي عائدة الى بلادها بعد ان تجوَّلت في مدن

الشام فانتظمتُ في سلكها بدون علم امي وركبت البحر معها الى الاسكندرية وغيّرت اسمي سلطانة باسم زاهية

«فكان اقبال الناس على تمثيلي في المراسح في الاسكندرية والقاهرة وعلى استماع غنائي ومعاينة رقصي اكثر من طرابلس. فعُرضتْ صورتي على الجدران وتراكض الجمهور لحضور فصولي. واذ كنتُ هناك غريبةً لا يعرفني احد من اهل مصر تعرّضتُ لاخطار اصاب نفسي منها عوارض سيئة اذكرها بكل أسف واطلب من الله ان يغفرها لي برحمته

«قضيت في مصر سنتين الى اواخر العام الماضي وكنت حصلت من شغلي على ٦٠٠ جنيه فرأيت ان في ذلك كفاية لمعيشي. فبلغ احد الشوام القاطنين مصر ما جمعتُ من المال فدعاني الى الزواج فأجبتُ الى دعوته مؤمّلة في الاقتران به خيراً فتزوّجنا زواجاً مدنيًّا وزوجي يتظاهر بسعة الحال والشغل الرابح فتقضيتُ معهُ شهراً وهو يحسن اليَّ المعاملة. وكنا أجرنا لنا حجرةً في احد احياء القاهرة. فبينما انا في ذلك البيت وزوجي معي اذ قمتُ يوماً عند الصباح ولم اجد [illegible] فرأيتُ انهُ خرج لشغل هام فانتظرتهُ الى المساء [illegible] فلما لم يرجع ولم اجد [illegible] وتحققتُ [illegible] فتقدمتُ الى دراهمي التي كانت فيه فوجدتها [illegible] وزوجي احتلسها وتوارى ولم اعد اقف لهُ على خبر مع إنفاقي الوسع في طلبه

«فلما عرفتُ ذلك اصابني منهُ نوعٌ من السرسام ولم اعد أثق باحد. ثم صرت اشعر برغبة عظيمة في العود الى [illegible] حتى مصر ضايقتني اي مضايقة فركبت القطار الى بور سعيد

«فنزلت هناك لأبيت [illegible] مركب يقلني الى بيروت فأعيش فيها معتزلةً بعيدة عن امي متهنئة بما بقي [illegible] من الثمن وهي ٣٠٠ جنيه. فنزلتُ في لوكندة وبتُّ فيها ليلتي. فلما قمتُ عند الصباح واذا بحفظة دراهمي قد توارت فدعوت صاحب المنزل وعرضتُ عليهِ الامر وصرختُ وتهدّدت فكان جوابهُ انهُ لا علم لهُ بذلك واني عند دخولي تؤدة لم أطلبه على ما اديَّ من الدراهم فلعلي اختلقتُ هذا الخبر الكاذب لاطالبهُ بها. ثم اضاف الى ذلك قولهُ انَّ لوكندتهُ كبيرة يبيت فيها ناس كثيرون فلا طاقة لهُ بالاستدلال على السارق وكان من الواجب عليَّ ان اقفل في الليل

باب غرفتي التي تركتها مفتوحة لسبب الحرّ

«فبقيتُ محتارةً لا ادري ما اعمل وضاقت الدنيا في عيني فاصبحت كالجنونة. فاعلمتُ الشُرط بما اختُلس لي من المال فما كان لتنتيشهم من فائدة وذهبت كل اتعابي ادراج الرياح. ولم اجد واسطة لمواصلة سفري الى بيروت الّا ان ابيع ساعتي الثمينة باثنتي عشرة جينه فصرفت ربعها في السفر ووصلت الى بيروت لا اعلم ما سيصيبني فيها فأجرتُ الغرفة التي وجدتني حضرتك فيها مريضةً سقيمةً

«واخذتُ في اوّل حلولي في بيروت ادور في المدينة طالبةً شغلًا ارتزق به فما كان احد يقبلني وانا لا اعرف عملًا إلّا قليلًا من الخياطة. فأيست من امري ورأيتُ ان اعود الى حرفتي من الرقص والغناء في الملابس المتهتكة. فدخلت مقهًى راجت فيه هذه الصناعة إلّا انّ ربحي منها كان زهيدًا مع هبوط اسعار الورق المالي فصرت اقتّر على نفسي في اكلي فضعفت صحّتي. واذ حاولت في ليلة الرجوع الى تلك الغرفة اشتدّ البرد وعصفت الريح ونزل المطر كالسيل. فسرتُ متأذّية من هذا الزمهرير الشديد وانا في لبس الخلاعة لا يستر صدري وذراعيّ شيء من اللباس وشعر رأسي مقصوص على الزي الجديد المدعو بالشاليش. فبُحّ صوتي ولحقتني سعلةٌ شديدة ولم ابلغ الى غرفتي حتى لزمتُ الفراش وانتهكتني الحمّى. ولا شكّ اني كنتُ فارقتُ الحياة لولا بعض النساء من الجارات اللواتي تلطّفن وقدّمن لي شيئًا من المساعدة الى ان فكّرن فدعونَ حضرتك لعيادتي. فوجدتني قاطعة الرجاء من الحياة مفضّلة الموت على حالتي السقيمة. شفقةً على والدتي التي بسببها حصلت لي كل هذه المشقّات والنكبات

«فيا ليت لي صوتًا يسمعهُ كل البنات المغرورات بهذه الازياء الخلاعيّة فأقول لكل واحدة منهنّ: اياكِ اياكِ وهذه الملابس فانها تعرّضك لفقد دينكِ وصحتك وشرفك معًا. كم كانت أليق واهنأ ملابسنا البسيطة المحتشمة. تلك الطرحة التي كانت تُسبل اطار لوجه الفتاة. تلك القساطين الضافية الذيل الساترة العنق المنطقة بنطاق لطيف يُظهر رشاقة القامة دون ان يضغط الصدر ويشوّه الاعضاء الباطنة

«وانت يا ابتِ الذي وقفت على قصتي المخجلة ارجوك كل الرجاء ان تبلغ امنيّتي هذه الى كل من تصادفهُ في طريقك

قالت هذا وسكتت لسانها ونطقت عيونها فسالت منها الدموع مدرارًا

قلتُ: لقد صدقتِ يا ابنتي بنسبة بلايالكِ لتلك الازياء المستقبحة كما اني اجد لك بعض العذر لسوء صنيع امك معكِ ولكن الربّ قد قادكِ الى هذا المستشفى لكي تسترحميه وتنالي السماح عن ما فرط منك جهلاً. وها قد دخلنا جمعة الآلام جمعة الرحمة والغفران فأعدّي نفسك لقبول الاسرار المقدّسة فانها وحدها تشفي آلام قلبك وتزيل عنكِ هواجس صدرك. ولي الامل انك اذا حصلتِ على هدوء نفسكِ تتربين ايضاً زمن شفائك

ولمّا كان صباح يوم خميس الاسرار جئتُ اليها باكرًا ومعي القربان الاقدس فنهضت على فراشها واعترفت بخطاياها بكل اهتمام وبندامة صادقة. ثمّ ناولتُها جسد الربّ فتلألأ وجهها الشاحب اللون فرحاً وظهرت كأنها غائصة في تأمل عميق لا تشعر بما يحيط بها. فاخذتُ اتلو صلوات الشكر وهي لا تبدي حراكاً. فلمّا انتهيتُ منها فتحت عينيها الزرقاوين وقالت: اني اشكرك كلّ الشكر يا ابتاهُ فإني في هذه الساعة قد ذقتُ تعزيةً لم اشعر بها في حياتي وقد طابتْ الى ضيف نفسي ان ينقلني من هذا عالم البؤس الى حضرته. وكأني قد سمعتُ صوتهُ يقول [illegible]

وحرضتُها على [illegible] ابنه الفسادي وعلى [illegible] العذراء ام المراحم ثمّ ودّعتها راجياً ان اعودها في اليوم التالي

فلمّا كان منتصف الليل وانا جاثٍ في الكنيسة حيث كان القربان معروضاً كالعرف العادة واذا بشبح غريب انتصب امامي فعرفت وجه زاهية فنظرتْ اليّ واسمعتني هذه الكلمات: «ابتِ قد دعاني الله قبل ساعة الى جواره وقد حكم عليّ بعذاب موقت في المطهر فرحمني لاجل توبتي على يدك. فارجوك ان تذكرني في صلاتك. وقد اراني الديّان شخص والدتي في اتون من النار لاساءتها تربيتي ولتحليتي بثياب الخلاعة. فليتّع كل من تجده من الفتيات المقترنات بهذه اللابس انهُ ينتظرهنّ يوم الدين افظعهنّ عقاب أليم»

قالت هذا وتوارت عن نظري. وبقيتُ مرتاباً في صحة الرؤيا حتى اذا كان الصباح ارسلت رئيسة المستشفى واعلمتني بموت زاهية وانها قضت ولسانها يلهج بشواعر التوبة مكررة اسمي يسوع ومريم. فتحققت صحة رؤياي واسرعت للصلاة عن نفسها

ثمّ حضرت دفنها في عصر النهار في نحو الساعة التي تحتفل الكنائس بدفن المسيح فوجدت في هذه المناسبة علامة جديدة لخلاصها. رحمها الله رحمةً واسعة ا (تمت)